عمـــــــدا لمجتمع

لهنريك ابسن

هنريك إبسن مكانة سامية فى تاريخ المسرح ، ولا أظن الظرف يسمح بإيفائه حقه من الإشادة ، بما كنت أحب أن أفى به ؛ ولكنى ألخص له رواية ، هى فى أسلوبها وغاياتها آية بينة على أسلوب إبسن وغاياته من الروايات المسرحية ، التى جعل منها موضوعاً لدراسة المجتمع ومشاكله ؛ ولا أحدثك عن ميزات إبسن العالية ومهارته فى حبك الموضوع وصياغة الحاورات ، وتوجيه ذلك كله إلى ما يقصد من نقد وإصلاح ، فهذا كله لا يكفل وعيه فى النفس إلا دراسة الرواية والاستمتاع بها ؛ فإذا كان مثل هذا التلخيص الذى نعرض له الآن يحفز على هذه الدراسة ، وذلك الاستمتاع ، فقد وفقت إلى أقصى ما أريد .

***

نحن فى حجرة بحديقة قصر القنصل (برنك) بإحدى ضواحى مدينة الدنيمارك ، وهى معمورة بسرب من السيدات والآنسات ، جلسن يستمعن إلى الأستاذ (رولند) وهو يقرأ فى كتاب ، من بين هؤلاء السيدات مسز برنك زوج القنصل ، ومارتا أخته ، ودينا وهى فتاة ربيبة القصر ؛ وإذا أصخت بأذنك لما يدور من الأحاديث ، علمت أنك فى قصر أكبر رأسمالى فى الميناء وهو برنك صاحب المشاريع الخطيرة والأعمال النافعة للمجتمع ، مما جعل قومه يرفعونه إلى أسمى المكانات ويطلقونه مثلا جميلاً على الإخلاص ونقاء السريرة وعلو الهمة والغيرة على المصالح الاجتماعية والمبادىء الخلقية ؛ وإنك لتحس أنك فى وسط أريستقراطى شديد المحافظة تطغى عليه ظاهرة واحدة لعلها تدل على عظيم أثر القنصل فيمن حوله ، وهى التفانى فى المجتمع والحرص على ما يمهد له سبل السعادة والتقدم والخير .

ويرجع الحديث بالمتحدثين إلى الماضى ، ويذكر كل منهم ما هاجه الحنين والذكرى فى نفسه من المؤثرات ؛ ويطرق الحديث شئوناً مختلفة وضروباً متباينة ، يكون من بينها التمثيل والفرق التمثيلية التى كانت تزور البلدة منذ خمسة عشر عاماً ؛ والظاهر أن هذا الحديث يوقظ فى بعض النفوس ألماً خفياً ، فإنهما تكاد تخرج مسز برنك ومارتا ودينا والأستاذ ويخلو الجو للمؤثرات ، حتى تنطلق إحداهن تلوم تلك التى تحدثت عن الفرق التمثيلية ، وتأخذ عليها أن تذكر الخبر أمام مسز برنك والفتاة دينا المسكينة ! فإذا تتبعت الحديث ، وضح لك من قصر برنك ما لا تكاد تصدقه ؛ فذلك الرجل العظيم لم يتورع العار أن يتسرب إلى بعض نواحى بيته منذ خمسة عشر

عاماً ،مما كان حديث الجميع ؛ وكان القنصل فى ذلك الوقت شاباً يافعاً حديث العودة من البلاد الأوربية ، وكانت تزور البلدة فرقة تمثيلية من ضمن أفرادها الممثل دورف وزوجه ، وكان خطيبة القنصل (زوجه الآن) أخ شاب حديث السن موظف فى بيتهم المالى الذى كانت تديره حينذاك أم القنصل ـ ... وقع الفتى فى حب الممثلة واندفع فى سبيل الحب الوردى لا يلوى على شىء.وفى ذات ليلة رجع الممثل دورف من الملهى على غير موعد ،فلم يدر إلا ورجل يقفز من النافذة ويغوص فى لجج الليل العميق ؛ ولم يشك أحد فى شخص الهارب ؛ وزاد الأمر توكيداً ، هرب جوهان (شقيق مسز برنك) إلى أمريكا . ويعلم الجميع أنه لم يفر صفر اليدين فانه سرق من مال البيت الذى كان موظفاً به مما هدده بالخراب بعد النبات والنقة ؛ وختمت المأساة بأن هجر الزوج الممثل زوجه وابنتها ؛ وجاهدت المرأة حتى سقطت ميتة ؛ ولولا أن مارتا آوت الابنة للحقت بأمها سريعاً ، ولما صارت دينا فتاة يافعة .

ويستمر الحديث ، ويدور حول لونا أخت زوج القنصل والتى يملأ جوها من الشبهات ما يملأ جو أخيها ، ولا يزال السيدات يذكرن كيف كانت تسير فى شوارع المدينة بحالة تلفت الأنظار وتحرك الألسن بالثرثرة ، ويقال إنها كانت تظن أن القنصل ينوى الزواج منها ، فلما فوجئت بعقد خطبته على أختها تصرفت تصرفاً شائناً لم يعف من الأذهان ...وقد فرت خلف أخيها ووصلت إشاعات مختلفة من وراء المحيط تقول إنها امتهنت الرقص وما شا كل ذلك . . هذا ما كان منذ خمسة عشر عاماً ولو أن الأراجيف لا تنام عنه .

وإذ دخلت دينا ، حول الحديث إلى مجرى جديد واختلس من الفتاة نظرات إشفاق ورثاء وعطف ، والفتاة لا تضيق لشىء ضيقها لهذا العطف والإشفاق اللذين يشعر انها بالذلة والهوان . ولا تبرم بشىء برمها بحياتها فى هذا القصر الذى يحاسب أهله على الابتسامة الصغيرة إذا خرجت عن حدود التقاليد المرعية . وهى تعلم أن الأستاذ رولند يحبها ؛ ولكنه يحرص الحرص كله على ألا يصل علم ذلك الحب إلى أحد ؛ لأنه يشفق بنفسه أن يصيب مكانته الاجتماعية رذاذ مما يتناثر حول تاريخ الفتاة ؛ وهو يستمهلها ويعهدها وينميها ، ولكنها لا تستطيع أن تقنع نفسها بأنه يحترمها مادام يخجل أن ينتسب إليه .

ويظهر القنصل والرأسماليون ،ونعلم مما يدور بينهم من حديث أنهم مقدمون على تنفيذ مشروع خطير ،هو إنشاء خط حديدى فى المدينة ؛والحق أن القنصل شخصية فذة محترمة ؛وكأنه ما وجد إلا ليعمل للمجتمع ويسهر على سعادته ؛ولا يزالون فى حديثهم حتى يصيح بهم صائح أن (سمركاً) أتى المدينة: وأن هاهم أولاء عماله يسيرون أمام القصر ،فيلتفت الجميع يشاهدون المارين ،و يلحظ هيلمار (ابن عم مسز برنك) أن سيدة تومىء برأسها إلى القصر ،فينبه إليها ويعجب الجميع من شأنها.وقد ظنوها من بنات السرك ! وتزيد دهشتهم إذ يرونها متجهة إليهم بل داخلة عليهم

تناديهم بأسمائهم كأنها تعرفهم حق المعرفة؛ ولا يطول تساؤلهم لأنهم يعرفون فيها « لونا » أخت مسز برنك وبطلة ما ذكرنا من حوادث . . . و تخبرهم أن جوهان آت معها ! وأنه فى طريقه الى القصر .

وتستطيع أنت أن تتصور لنفسك ما أحدثه ظهور لونا وجوهان فى نفوس الزائرات وأصحاب القصر على السواء، من الدهشة والألم والخجل ، بعد إذ علمت من أمرها ما علمت .

***

طبيعى جداً أن يحدث قدوم الأمريكيين انزعاجاً فى الأسرة. وطبيعى جداً أن يصلى ناره القنصل وزوجه، ما دامت هذه تحس إحساساً قوياً بما تسببه له قرابتها لهذين الشخصين من تكدير صفو الحياة؛ ومادام هو قاسياً فيما يمس السمعة والخلق؛ ويؤكد هذا النفور والألم بين الزوجين شكوى هيلمار من الزائرين اللذين منذ قدومهما لا ينيان عن السير فى طرق المدينة ومعهما دينا وأولاف (ابن القنصل الصغير) بحالة لفتت الأنظار وأيقظت الذكريات وأطلقت الألسن بالأحاديث المرة ؛ ومستر برنك يألم لذلك من غير شك ، ولكنه يرجو من هيلمار أن يتغاضى عنه، وألا يذكر الماضى بكلمة أمام الزائرين رحمة بهما ! فتهتف به زوجه: ما أكرمك! ما أنبلك!

وينصرف هيلمار ومسز برنك ويدخل أون رئيس بنائى السفن فى مصنع برنك وشركاه ، ويبدو لنا أن العامل ورئيسه مختلفان بسبب إدخال الآلات الحديثة فى المصنع ؛ فالرئيس يضع أمامه مصلحة المجتمع ويستشهد باختراع آلة الطباعة، فقد كانت بلا شك سبباً فى خراب آلاف البيوت، ولكن العاقل لا يمكنه أن ينكر فضلها أو يكابر فى أن فوائدها لا تدع مجالاً لذكر مضارها التافهة، والعامل من جهة أخرى يذكر العمال ويؤسهم ويسأل سيده ما عسى أن يكون رأيه فى أمر آلة الطباعة: لو أنه كان عاملاً مثله! على أن الرئيس يضيق بالمناقشة ويحتم على العامل أن ينتهى من إصلاح السفينة الأمريكية « الفتاة الهندية » قبل غد، لتبحر فى موعدها بغير ذلك إذا طلب الرجل أن يمد له فى الزمن، أصر القنصل على رأيه وهدده — إذا أخلف أو تأخر — بالرفت! . . فيقبل الرجل مكرهاً ويخرج وهو كظيم .

ثم يدخل الأمريكيان ودينا وأولاف، وقد تولدت بين جوهان ودينا علاقة ودية وسحرية؛ فهى لم تلق فى حياتها إنساناً مثله صراحة وبعداً عن التكلف ، كما أنها لم تلق من يحترمها احترامه من غير دافع عطف وإشفاق ومن غير خجل وخوف من الناس وأقوالهم ؛ إلا أنها لا تحب أن يطلق العنان لعواطفه، فتعرضه لما لا يدرى من الشكوك التى تشبع جوها . . ! ولا يلبث أن يدخل الجميع إلى القصر، إلا جوهان بطل قصة المملة، وبرنك عمود المجتمع ؛ ولا يكاد يخلو بهما المكان حتى ينظر القنصل إلى الفتى بوجه يطفح بشراً وامتناناً ويقبض على يده ويقول :

برنك — صرح بيتى هذا ، سعادتى المنزلية ، مركزى فى المجتمع ؛ هذه جميعاً أنا مدين لك بها .

جوهان — حسناً ، إنى مسرور ياعزيزى ، وكيف لايسرنى أن يأتى خير من وراء هذه الحكاية القديمة ؟! .

ويقول له القنصل إنه أنقذ حياته وما هو أثمن من حياته،فيقول الآخر :

جوهان — صه... كنت وحيداً حراً يتيماً ، وكان يسعدنى أن أتخلص من ربق وظيفتى، وفى صدد ذلك كانت أمك مازال على قيد الحياة ، وكانت خطبتك معقودة سراً على أختى؛فاذا يحدث لها لو أتيح أن تعلم الحقيقة ؟

برنك — حقاً، حقاً ، ولكن ...

جوهان — ألم يكن بسبب أختى أن صرمت حبل المودة مع مدام دورف ؟ ألم يكن من أجل أن تقطع هذه العلاقة أن كنت فى بيتها تلك الليلة ؟

برنك — نعم ... تلك الليلة المشئومة ... لما رجع ذلك الوحش السكير إلى البيت . . . نعم ياجوهان، كان ذلك من أجل أختك،ولكن مع ذلك... كم كان كرماً منك أن تحول الشبهات إليك وتفر بعيداً .

أرأيت كيف أميط اللثام عن الإله إذا به صنم ؟...ويبدى برنك قلقاً من رجوع جوهان، فيطمئنه ويقول له إن بقاءه إلى حين فقط... ولكنه يعترف له أن أخته لونا تعرف الحقيقة أيضاً وأنه اضطر إلى أن يعترف لها،لأنها عزيزة عليه ، ولأنه لم يقو على لومها ... ولكنه يطمئنه أيضاً لأن أخته لن تبوح بكلمة لإنسان .. أما عن مجيئه فهو تلبية لرغبة أخته التى تحن إلى وطنها؛وهل كان يستطيع أن يرفض لها رجاء وهى التى بذلت ما هو أغلى من حياتها لتوفر له السعادة والراحة عند ما كانا فقيرين بأمريكا ؟

وتخرج جوهان وتدخل لونا فتلقى القنصل وحيداً ويتجاذبان أطراف حديث تمتد به الذكرى إلى الماضى البعيد،ونعلم منه أن برنك كان يحب لونا فيما مضى وأنه كان يعدها بالزواج ، ثم كان أن سافر إلى أوروبا ،فلما رجع تجافاها ووقع فى حب الممثلة مدام دورف ، كما مر بنا، وفى ذلك الوقت رأى أخت لونا الصغيرة وعلم أنها الوريثة الوحيدة لعمة لها ؛ فبادر إليها يتودد ، حتى علقها بحبه وعقد خطبته عليها ثم تزوجها ..وهو يكاد لا يتماسك أمام نظرات لونا ، ولكنه يدافع عن نفسه دفاعاً يراه وجيهاً ، وتراه معيباً ،إذ يقول إنه كان يحبها حباً صادقاً ، وإنه إنما تزوج أختها لثروتها لا لحبها؛لأنه لما رجع وجد أن بيت آبائه مهدد بالخراب،وناداه واجبه نحو آبائه والمجتمع ،فلباه على الوجه الذى ترى؛ولكن لونا لاتحفل كثيراً بمثل هذا الواجب،وإنما يدهشها

أن ترى حياته قائمة على ثلاث أكاذيب : كذبه على جوهان لأنه يحمله من الذنب ما لم يفعل، وكذبه على زوجه لأنه يخدعها بحب لا يسعه قلبه ،وكذبه عليها لأنه ضحى بها ... فأية حياة هذه التى تستمد من الأكاذيب ؟! أفلا تراه يتألم لذلك؟لا.. إنه رجل عملى لا ضمير من معدن آخر: وقد يستحيل عليه أن يتصور إنساناً يرضى أن ينهار بنيانه،لأنه يقوم على كذب ؟ أليس لكل إنسان هفوة أو هفوات يحرص على إخفائها ، وربما لو كشف عنها الستار بارت حياته ؟ . .

ويقطع حبل الحديث ويدخل جميع من حضر بنا من أهل القصر . . . ويعلم رولند أن دينا تميل إلى جوهان،فيجن من الغيرة . . ويصرح لها أن ذلك الشاب الذى توشك أن تضع فيه ثقتها،هو الذى اعتدى على أمها،مما كانت نتيجته أن هجرها أبوها وتركها وحيدة تموت . . . وهو - إلى ذلك - سارق .. سرق البيت الذى كان موظفاً فيه ، وها هو ذا القنصل — وهو لا يشك فى صدقه ! — يشهد على ذلك ؛ ويعجب جوهان من ذلك أشد العجب ، لأنه أولاً لم يسرق،ولأنه ثانياً لا ينتظر من القنصل - الذى ضحى فى سبيله - أن يذيع عنه ما لم يرتكب ، بل لعله انتظر أن يدافع عنه كثيراً . . ويتكهرب الجو . ولا ينقذ الموقف إلا دخول بعض الرأسماليين فى طلب القنصل ، فإن مشروع الخط الحديدى فى خطر ولا ينقذه إلا القنصل ،للثقة الغالية التى يتمتع بها ، ولما هو معروف عنه من جدارة بهذه الثقة !

***

نحن فى حجرة الحديقة أيضاً ، وفى الحجرة القنصل ورئيس كتابه (كراب).والكاتب يفضى لرئيسه بتصريح غاية فى الخطورة ، ذلك أنه لاحظ مراراً أن الإصلاح الجارى فى سفينة الفتاة الهندية يلابسه إهمال وسرعة،هو جاء، وأن شكاً قوياً يداخله فى أن(أون) يتعمد أن تبحر السفينة وهى واهية البنيان ، بحيث لا تستطيع مقاومة الرياح ، فتغرق ويقوم غرقها برهاناً قوياً على فساد الآلات الحديثة، الأمر الذى يحرص أون على الدناية له ؛ ويضطرب برناك لذلك ويصرف كاتبه بعد إذ يطمئنه ويعده بالاهتمام بالأمر ، ولا يكاد يفيق من كابوس هذا الخبر حتى يفاجأ بدخول لونا وهى متلهفة على معرفة أمر السرقة المزعومة ، ويخبرها عمود المجتمع أن سرقة لم تقع ، وأن الأمر لم يتعد الإشاعة،ولكنه استغل الفرصة وشجع هذه الإشاعة فجرت مجرى الحقائق ، وكان مطمئناً إلى أنه لم يأت أمراً نكراً ، لأن سمعة جوهان كانت حينذاك من السواد بحيث لا تؤثر فيها بقعة جديدة .ولأن انتشار مثل هذه الإشاعة يبقى الثقة فى بيت برناك ، فلا يعزو الناس سوء حال ماليتهم إلى إهمال أو ضعف ، وإنما إلى أمر خارج عن كل ذلك وهو السرقة ؛ وقد استطاع بفضل هذه الإشاعة،وبفضل مال أختها ، أن يسترد مكانة أجداده ويحتل المكان العزيز الذى سما إليه .

وهما يخضعجوهان ، والفتى لا يخفل كثيراً بأمر السرقة،فقد تخلق بأخلاق الأمريكيين، وهم عادة لا يخفلون بآراء الناس عنهم ؛ ولكنه من جهة أخرى يحب دينا،وقد عقد العزم على أن يتزوج منها ويقيم معها هنا فى الميناء .. ويراع القنصل لذلك الخبر الذى فيه القضاء عليه ويصرح بسر خطير،هو أنه قبل أن يعلن أمر مشروع الخط الحديدى اشترى سراً جميع الأراضى التى سيمر بها ، كالغابات ومساقط المياه والمناجم،واشتراها بثمن بخس،حتى إذا تم المشروع صار مليونيراً .وإذا فشل هوى إلى الخراب.. وأعداء المشروع كثيرون،وهو ما زال يتكىء على خيوط من حرير .ومثل هذا الزواج قد يقطع هذه الخيوط ويهوى بالمشروع إلى الحضيض .. ويرضى الفتى أن يسافر إلى أمريكا،ولكن إلى حين،على أن يعود ويطالب باسمه وبإعلان الحقيقة، فإذا تحفز القنصل للمقاومة وتكلم عن تهمة السرقة،هدده الآخر بخطابات عنده ، فيها الحديث الحقيقة والكذب ! أما الآن فسيسافر غداً فى « الفتاة الهندية »!

ويخرج الفتى وتخرج لونا.وهى ما تزال مفكرة فى شراء القنصل للأراضى التى تمر بها الخط الحديدى . وفى عقليته التى تعمل لنفسها وتمهد لبسط نفوذها وقوتها وإرضاء أنانيتها،بينما يظن الرجل أنه يعمل للمجتمع ولقومه ؛ وأنه يوفر حياته وما تملك لغيره !

ويخلو المكان ببرنك،وتمر به ساعة عصيبة ، فهو الآخر أصبح يعتقد ويجزم بما يشك فيه كاتبه كراب ، من أن السفينة الأمريكية إنما أفلست لتغرق ؛ وقد أصبح أمر السفينة وأرواح من عليها فى يده هو! نعم إن سمعة المصنع قد تنال بعض الشىء،إذا تأخر موعد إبحار السفينة ، ولكنها إذا أبحرت وغرقت،فلا شك أن هذه السمعة تتعرض لسوء أشد ! ومن جهة أخرى – وهو ما يشغله كثيراً – فالسفينة تحمل جوهان ، وخطابات قضها كفيل بالقضاء عليه قضاء مبرماً ، فماذا يصنع ؟

وأخيراً تبرد حرارة قلبه وتهدأ العواصف فى نفسه،وتسكن الجواذب فى ضميره؛ وتتمخض هذه الثورة عن رأى واحد.... وهو أن تبحر السفينة فى موعدها !!!.

***

البلدة جمة النشاط متدفقة الحياة ، يتأهب كل فرد من أفرادها للاحتفال بالرجال العاملين عمد المجتمع،وعلى رأسهم القنصل برنك.

والقصر كذلك كثير الحركة ، ضيق بمن فيه ، وقد وضع هيلمار قطعة موسيقية يطلع القنصل ، وحضر (رولند) خطبة طويلة كلها إطراء وثناء على القنصل،والجميع يحث مستر برنك على أن يتأهب ليلقى الجمهور ،محاطاً بزوجه وولده ، وليخطب فيه .

وفى ناحية ساكنة من نواحى القصر،اجتمع جوهان ودينا ولونا ومارتا ، وقد فكر الفتى

أن يستصحب معه دينا ، على ألا يعود ثانياً . ومارثا تنصح الفتاة أن تقبل ، والفتاة نفسها تجد من الدوافع القوية والإغراءات الساحرة ، ما يجعلها تأبى الطلب من غير نصيحة ؛ إلا أنها تشترط عليه أن يدع لها فرصة ترسم فيها حياتها بنفسها . فتعطى نفسها بمحض إرادتها لمن تشاء وترضى ، من غير أن تؤخذ أخذاً ، ثم يتوادعان ويخرجان ، ولعلهما يجهلان أنهما تركا خلفهما قلبين كبيرين انتزع من كليهما عرشه الذهبي ، فلونا كانت تحب أخاها كأبيها ، وكان هو يتعلق بها كأمه ، وهاهي ذي قد تقلص ظلها من قلبه دفعة واحدة ، وكذلك مارثا كانت تجد عند دينا عزاء يهون عليها مرارة الوحدة والعزوبة ، وها هي ذي تجد نفسها وحيدة . . وهي تعترف للونا أنها كانت تحب جوهان . . وطالما أحبته ، وقد ارتأى لها هذا الحب — عند ما علمت بالجريمة — أن تؤوى الفتاة الصغيرة وتربيها ، لتكفر عن ذنبه . . وترتمى كل منهما بين يدى الأخرى ، لعلها تجد عندها ما فقدت من حب وحبيب .

وتقصد لونا إلى القنصل فتجده وحيداً ، عظيم الاضطراب ، وذلك لأنه قد قبل أن يظهر أمام الجمهور على غير رغبة منه ، وهو إلى ذلك لا يجد زوجه ولا ابنه — على كثرة سؤاله عنهما — وتهنئه لونا على أن قد أتت ساعة التكريم والتبجيل التى تحلم بها كل النفوس الطامحة ، ولكنه يفجؤها بأنه ليس سعيداً كما تظن ، وأن حياته تبدو لعينيه باهتة ثقيلة . . . وحقاً لقد خدع نفسه حين ظن أنه عمود يقوم عليه المجتمع . . والحق أنه آلة يعبث بها هذا المجتمع !

لونا — ولماذا لم تر ذلك إلا الآن ؟

برنك — لأنى ما فكرت فيه إلا أخيراً ، بعد رجوعك إلى هنا ، بل هذا المساء على وجه الخصوص . أواه يالونا ! لم لم أعرفك فى الأيام القديمة ؟

لونا — فماذا كنت فاعلا ؟

برنك — كنت لا أتركك أبداً . فأتجنب هذه الحالة التى هويت إليها .

لونا — ألم تفكر بتاتاً فيما كان يمكن أن تكون لك تلك التى آثرتها على ؟

برنك — إنى أعرف على كل حال أنها ليست شيئاً أحتاج إليه .

لونا — ذلك لأنك لم تشاطرها حياتك العملية ، ولأنك لم تضمها إليك بعهد حر صادق ، ولأنك رضيت بحمل العار الذى لطخت به كل من حولك .

برنك — نعم . . . نعم . . . نعم . . . كذب ودناءة فى أعماق كل شىء .

لونا — لماذا لا تتمرد على هذه الأكاذيب ؟

برنك — الآن ؟ ! . . . لقد فات الوقت يالونا .

على أنه لا يضيع وقته عبثاً ، فهو يتهد لابنه من بعده كى يحظى بحياة أسعد من حياته ، حياة لا

تقوم على الأكاذيب ، لا تستمد سلطانها من الدناءات .. ولكنه لا يمكن أن يعد مسئولاً وحده عن أخطاء المجتمع ، ولسوف يدافع عن نفسه إذا فكرت في فضحه أمام الجميع ، ولكنها تطمئنه على مكانته ، فأخوها قد سافر مع دينا إلى أمريكا ولن يرجعا ثانياً ، وقد اختار سفينة غير الفتاة الهندية ، لأنه شك في مقدرة ربانها ؛ وهي لا تفكر في الإيقاع به ، وكل ما في الأمر أنها علمت بسر حياته وقذارتها ، فأتت إليه لتؤنبه وتلفت نظره لعله يستيقظ ، ولكنه يأبى إلا أن يبقى نائماً ؛ وإذاً فليبق كما يشاء . . ولكي تبعد عن نفسه كل شك ، فها هي ذي تمزق الرسائل التي تهدد سمعته !

وتصعقه هذه التصريحات صعقاً ؛ فجوهان يختفي إلى الأبد ، والخطابات التي صار مجرماً من أجلها ممزقة تحت قدميه ، وفضلاً عن ذلك ، فالفتى قد سافر على غير الفتاة الهندية . . . وهو لا يستطيع أن يأمر بتأجيل إبحار الفتاة الهندية الآن . . فكأنه دبر القضاء على أرواح بريئة ، من غير فائدة ومن غير ذنب !

ويدخل عليه هيلمار وفي يده خطاب . . والرجل شديد الاضطراب لا يدري ما يقول ؛ فإذا سأله برنك عن زوجه وأولاف ، زاد اضطرابه ، ولكنه لا يجد مفراً من أن يقول للقنصل إن ابنه أولاف مختف في الفتاة الهندية ! وإنه كتب إليه خطاباً يذكر فيه أنه سيسافر مع خاله جوهان إلى أمريكا ليرتاح من تقييد أبيه له ! . . . أمام ذلك يئن القنصل من الألم . . وقد قضى على حاضره ومستقبله وغاض كل أمل له في الحياة ! فمن هنا ترى أن المكر السيء يحيق بأهله . . ولكن الذين يحيطون ببرنك لا يفهمون كل شيء ، فإذا كانت السفينة الأمريكية ستبحر بالصبي إلى أمريكا ، فمن السهل أن تعود به كذلك ، وهم يذكرون أنه أب للمجتمع وليس لأولاف فقط ! ، أما هو فلا يذكر مجتمعاً ولا مجتمعين ؛ وإنما يذكر أمراً واحداً يحز في فؤاده حزاً ، ذلك أنه قضى على ابنه بيده شر قضاء ، وقضى على نفسه في آن واحد ؛ وفي تلك الأثناء تدخل مسز برنك فتلفت إليها الأنظار ؛ لأنها كانت غائبة إلى حين ظهورها . ويتوجه القنصل إليها بالملامة إذ تغضي العين عن طفلها ، حتى يفر هارباً ؛ ولكنها تؤكد له مطمئنة أنها أعظم حذراً مما يظن ، وأنها أحست بحركات الطفل وتبعته إلى السفينة ، وأمرت أون زعيم العمال أن يبحث معها عنه ، ولكن السفينة أوشكت أن تتحرك ولما يعثر عليه ، فاضطر أون - بسبب ذلك - أن يأمر بتأجيل موعد إبحار الباخرة إلى الغد ؛ وبذلك استطاعت أن تنقذ الفتى من الهلكة ؛ وهي تتوسل إليه أن يعفو عن عصيان ابنه ؛ ويعفو عن مخالفة أون أوامره ؛ وهكذا أنقذ الله السفينة ومن بالسفينة ؛ وأنقذ على وجه الخصوص أولاف ، وبث في قلب برنك حياة جديدة لا عهد له بها .

وأتى القوم المحتفلون وهم يهتفون بحياة برنك ، وخطب رولند خطبة جامعة أشاد فيها ببرنك وأعماله وتضحياته حتى إذا ما انتهى توجه القوم إلى برنك شغوفين باستماع كلمة منه .

وقام القنصل ليخطب وصمت القوم حتى ليحاسبون أنفسهم على أنفاسهم ، ولكن الخطبة لم تأت كما كان يحب الأصدقاء ولا كما كان الجمهور ينتظر ، أو قل إنها جاءت كما شدما يكره هؤلاء وهؤلاء ، ولعلها كانت أقرب إلى الاعتراف السلبي منها إلى خطبة قومية ، استهلها بالطعن في المجتمع وتقاليده وتوسله إلى الله أن يقيه شرها ، وصرح بكل رزانة بأنه — وهو اكبر عمود في المجتمع — صاحب الفضيحة الكبرى التي أثارت اشمئزاز الأهلين منذ خمسة عشر عاماً ، وأن الفتى جوهان بريء منها ، وأنه هو الذي اشتري جميع الأراضي التي سيمر فيها الخط الحديدي ، ولم يدع غير ذلك إنما اقترفه إلا اعترف به ، حتى انتهى وقد أحس أنه وإن كان قد خسر كثيراً ، إلا أن ربحه أوفى على خسارته .

ويترك القنصل الجميع ويقترب من زوجه ويسألها أن تعفو عنه وتجيبه المرأة إلى طلبه ، وعلمت أنه لم يكن لها ، أما الآن فستربحه بعد إذ كانت تظن أنه كان لها ثم خسرته ! ثم يعفو عن أون ويعطيه من الوقت ما يشاء لكي يتم إصلاح الفتاة الهندية ، ويعفو عن أولاف ويعد أنه ما عاد متداخلاً في حريته بحيث يرهقه ويزهقه ، وأنه سيهب له حياته يتصرف فيها كيف يشاء .

ويجلس إلى زوجه وأخته ولونا . وكأنه يجلس إلى أسرته لأول مرة ، أو كأنه كان داخلاً من جراء مرض خبيث ثم أفاق ، ويسأل لونا إذا لم يكن بدافع الانتقام قد فعلت ما فعلت ، فبدافع أي شيء ؟ فتجيبه ببساطة : بأنه بدافع الحب القديم ! !

برنك — إلى ... إلى ... أيتها السيدات الصادقات الوفيات ! لقد تعلمت الآن أنكن أنتن عمد المجتمع .

لونا — إذاً قد تعلمت حكمة فقيرة . . . كلا . . كلا . . إنها آيات الحق والحرية . . تلك هي عمد المجتمع .

نجيب محفوظ

المعرفة في تونس

تطلب « المعرفة » في تونس من حضرتي وكيلينا السيد محمد الأمين والسيد طاهر صاحبي المكتبة العلمية رقم ١٢ نهج الكتبية .

أو من حضرة السيد محمد بن الحاج صالح الثميني صاحب مكتبة الاستقامة رقم ٣٤ نهج سيدي ابن عروس .